القراءة في العيون المغمضة

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

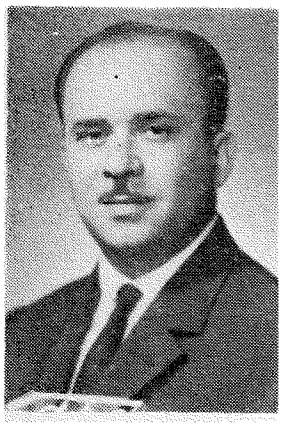

الشعر الاشقر المتهدل يحجب وجهها جانبيا ، وهي منحنية تلقي على المقعد كيسا تعلقه بكتفها ومحفظة صغيرة وآلة تصوير .

وتستقيم في قاعة الانتظار بالمطار ، وتنفض شعرها المتدلي ، فينكشف له منها وجه ابيض أميل الى الاستطالة منه الى الاستدارة. ولم يكن من البعد عنه بحيث لا يلحظ ان في عينيها الزرقاوين صفاء وشفافية . وكان البنطال الاسود الذي ترتديه تحت كنزة صوفية شد نهدين ينبض فيهما التحدي ، يقولب قامة ممشوقة أشبه بقامة عارضة أزياء .

راودته أمنية ان تكون متجهة مثله الى روما .

وأتاه الصوت الآخر : ولكن ما عساك تتوقع أن يحدث ؟ أبدا وراء أوهامك ما تزال تجري . خيبة أخرى ستجنيها ، فتضيفها الى السابقات، كأنما أنت جمّاع خيبات . شفوف أنت بها شغف صديقك ذاك بجمع الطوابع . كأنما تصيب في الاخفاق لذة تعذّب بها نفسك . نوع من الماسوشية ، تدمنه منذ شبابك الاول ، تحبه وتخشاه ، تسعى اليه وتهرب منه . وهأنت ذا تنسى الآن آخر دليل ، وهو بعد أحدث عهدا من أن ينسى : أمس فحسب !

* * *

كان ما يزال أمامه ، بعد انتهاء أعمال المؤتمر ، يوم بطوله ، بنهاره وليله ، قبل أن يتجه في الصباح التالي الباكر الى مطار بيزا ، ليستقل الطائرة الى روما في طريق عودته الى بلده . أين ستقضيه ، هذا اليوم ، وكيف ؟ وتتناسى انهم ، هناك ، في المكتب والبيت ، بأشد الحاجة اليك . أعمالك المتراكمة انصرمت أسابيع وأنت تؤجل انجازها لطوارىء من الدعوات أو الرحلات أو الاجتماعات ، تعرض لك او تخلقها خلقا . وأسرتك المتلهفة ، زوجتك التي تنوء بالاعباء تلقيها عليها ، أو تحملها هي عنك برضى ، بل بنبالة ، وأولادك الذين يشكون انهم لا يكادون يرونك ، وأنت منصرف عنهم لا تصحبهم في نزهة ، أو في مشاهدة فيلم ، او حتى في الاطمئنان عن سير دراستهم ...

ولكن ذلك الارهاق والعناء في العمل ، ألا يحق لي أن اصيب منهما بعض الراحة ؟ ألست اشعر احيانا ، من فرط الاجهاد ، بأني على شفا انهيار عصبي ؟ أوليست سلمى هي التي تشجعني ، بصمتها غالبا ، على السفر ، التماسا للراحة وهدوء الاعصاب ؟

بصمتها ، تقول ، وتعتبره تشجيعا لك ؟ أليس هو ، على الاصح ، صمت المغض ؟ صحيح انها تدعوك ، اذا تكلمت ، الى أخذ قسط من الراحة ، كلما لاحظت عليك التعب والهم ، ولكنك تحمل كلامها على انها تدعوك الى السفر ، متجاهلا انها لا تدعوك الا للراحة في البيت ، والانقطاع يوما أو بعض يوم عن المكتب ..

ولكن أتكون ملازمة المنزل هي التي تهدّىء الاعصاب وتريح الفكر؟ ان بي حاجة الى الابتعاد عن أجواء العمل كلها ، الى شيء من النسيان، الى غيبة أو غيبوبة عن جهاز المتلفون هذا الذي يستطيع بلمحة بصر ان يوفر لي الحضور الثقيل .

أن يضرب في شوارع هذه المدينة الاجنبية ، على غير هدى ، أن يتيه ، بل أن يضلّ اذا أستطاع ، أن ينساهم جميعا ، الزوجه والاولاد ، والمكتب والعمل والمنزل ، ان يفتش عن أجواء جديدة ، فيها نكهة الاغتراب ، عن درب جديدة لم تعرفها قدماه .

وخرج من الفندق . ومضى ساعات الصباح متسكعا بين المقاهي ، ودخل مكتبتين يسأل عن بعض السجلات الفرنسية لعلها تكون قد وصلت هنا ، قبل أن تصل الى مكتبته المعتادة في بلده ، فلم يجدها . وعاد الى الفندق متعبا . وتناول الغداء ، فلم يستمرىء الطعام . وتمدد في سريره ، ليأخذ قيلولته المعتادة ، فلم يصب راحته المنشودة . بل شعر ببعض صداع ، وأحس أعصابه تثور ، من غير أن يدرك السبب .

بعد الظهر ، وقف في ساحة قريبة من الفندق ينظر الى الحمام يتقافز وينطاير ويلتقط الحب من أيدي السياح . كان ثمة بعض المصورين يأخذون الصور ويقدمونها لاصحابها في لحظات . مثل هذه الصورة التقطت له مع سلمى ، منذ أعوام ، في ساحة مشابهة بمدينة البندقية . وذكر ابنته الوسطى . كان يقلب مجموعة الصور منذ أسبوعين ، فناداها وقال لها وهو يضع اصبعه على بطن زوجته في الصورة : « كنت هناك يومذاك يا عفريتة ! » .

وابتسم لنفسه ، كما ابتسم لها يومذاك . أجل ، كان يبدو واضحا في الصورة ان سلمى حامل . لو كانت معك الآن ، لطلبت صورة أخرى . صورة تبدو فيها قامتي جميلة ، كانت لتقول . وهفا اليها . انت هنا تتسكع . تلقي عن كتفيك التبعة . وهي هناك تشقى ، بين المكنب والبيت . عن كل شيء ، مسؤولة هي . حتى عن افتراع الصغير بتناول قسطه الادنى من الطعام ، تلك المشقة التي كنت توفر عليها بعضها بالاشراف على أكل الصغير . ورآها منحنية فوق كتاب احدى البنتين ، تساعدها في الدرس ..

أوشكت السلسلة ان تكرّ من جديد ، وهو مسمر في ساحة الحمام، ينظر ولا يرى ، يصغي ولا يسمع . لولا ان تقدمت منه فتاة ، فبسطت له آلة تصوير ، وقالت كلاما بالايطالية فهم منه انها ترجوه ان يلتقط لها صورة مع الحمام ، فأومأ برأسه موافقا من غير أن يقول لها ان كثيرا

من الصور التي سبق أن التقطها قد احترق او كان مهزوزا او كان رديئا ...

قال لها بالفرنسية بعد أن أنجز مهمته ، على ارتباك :

ـ أرجو ألا تكون يدي قد شوهت صورة وجهك الجميل !

وحين بدا عليها أنها لم تفهم ما قاله ، فيما هو يرد لها آلة التصوير ، أعاد العبارة مستعينا بالحركات الموحية ، فاذا هي تنفجر ضاحكة وتقول بالانكليزية : « فهمت ! » .

الجولة الاولى اذن كسبناها ! استطعنا ان نضحكها ! فاذا أضفنا الى ذلك اننا نعرف بعض الكلمات الانكليزية ، فان كسب جولات اخرى ليس بالامر المستحيل !

كانت توشك ان تنصرف عنه شاكرة حين سألها بلغة خليط من الانكليزية والفرنسية والايماءات :

ـ اذا كانت الانسة من سكان المدينة ، فهل تملك بعض الوقت لتدل زائرا شرقيا على بعض معالمها ؟

حين نظرت الفتاة الى ساعتها ، أدرك ان يدها هي التي نلح في طرح السؤال عليه : ما عسى يكون عمرها ؟ وأجاب مفاجئا نفسه بأنها لا يمكن ان تتجاوز الثامنة عشرة . انها اذن لا تكبر « حنان » بأكثر من عام او عامين ، فالفتل ثلاثة . أتتصورك بصحبة فتاة في عمر ابنتك تقريبا ؟ وماذا في ذلك ؟ انها ستكون لي بصفة دليل . ثم نبدأ المحاولات لاقناعها ، لا اقناع نفسك المقتنعة مقدما ، بأن دور الدليل دور جاف ، دور تجريدي يفتقر الى عاطفة انسانية ، بل الى عاطفة بشرية ، تنزع عن المعالم والآثار والتماثيل جفاف التاريخ والقدم ، وأن ...

قالت الفتاة ، وهي ما تزال تنظر الى ساعتها ، ان امامها زهاء ساعتين لا تجد مانعا من ان ترافقه فيهما الى المتحف .

لماذا لا يقول لها انك لا تحب المتاحف ، وانك لم تزر يوما متحفا ، بناء لبرنامج مقرر مفروض في الدعوات ، الا وعانيت منه الضجر ؟ أم أن زيارة هذا المتحف ستكون مختلفة ، وسيبدد الضجر فيها حضور فتاة يتفجر من جسمها الصبا ومن وجهها الجمال الايطالي الذي بدأت تتأمل قسماته الدقيقة ، وبشرته السمراء الممزوجة بخضرة العينين ؟

قال لها فجأة :

ـ هيا بنا الى المتحف .

وأمسك بذراعها ، ومضى بها على عجل ، كأنما كان يخاف ان يعدل . وأخذت هي ترسل صرخات احتجاج صغيرة ضاحكة وهي تقول :

ـ لماذا العجلة ؟ انني ، يا سيد ، أكاد أسقط !

قال :

ـ أخشى ان يهرب المتحف !

ضحكت وقالت :

ـ المتاحف هي الاشياء الوحيدة التي لا تهرب ..

ـ لماذا ؟

ـ انها مثقلة بالذكريات والماضي والتاريخ .

وكاد يقول لها انه يخشى ان تهرب هي ، ولكنه أمسك ، ثم ضغط على ذراعها ، فأحسها تتملص على مهل من قبضة يده ، فالح في الضغط ، واستوقفها فجأة يقول :

ـ اسمعي . أجيبي بسرعة على أسئلتي !

فالتفتت اليه بعينيها الخضراوين ، ووضعت كفيها على خاصرتيها :

ـ تفضل !

ـ اسمك ، اسم أبيك ، اسم أمك ، عمرك ، متزوجة أم عازبة...

انفجرت ضاحكة وقالت :

ـ لا بد انك موظف في دائرة النفوس . انحراف مهني !

وأضافت ان اسمها باتريشيا ، واسم أبيها واسم امها لا يعنيانه ، وعمرها سبعة عشر عاما . وهي عزباء . ثم سألته دون ان تلتفت اليه :

ـ واسمك أنت ؟

قال : ـ عمر .

سارعت تقول : ـ أوه ! مثل اسم عمر الشريف ؟ انني لا أحبه !

ـ لماذا ؟

ـ انه بارد في التمثيل !

قال بلا تردد : ـ اما انا ، فسأثبت لك اني لست باردا !

لم تضحك ولم تعلق ، بل مضت قدما وهي تشير بيدها :

ـ هذا هو المتحف .

تريد أن تغير الحديث ؟

ـ لم تسأليني عن عمري ..

التفتت اليه وقالت بهدوء :

ـ لا يهمني أن أعرفه .

أوقعه جوابها في حيرة . هل لي ان أتشاءم بهذا الجواب أم أتفاءل ؟

وصمت . وبدأت هي تحدثه عن اللوحات فور دخولهما المتحف . وظل على صمته . وشرحت له تاريخ بعضها وميزات الرسامين الذين أبدعوها . وفوجيء بها تسأله ذات لحظة :

ـ لا أراك تقول شيئا ؟ ألا تثير اهتمامك هذه اللوحات ؟

توقف في وسط القاعة ، وقال بكل هدوء :

ـ اسمعي يا انسة . خدعتك حين أخفيت عنك انني لا أحب المتاحف ..

وقبل ان ينتظر جوابها قال :

ـ ما رأيك في ان نشرب شيئا في مقهى قريب ؟

قالت بلهجة استسلام ، وهي تنظر في ساعتها :

ـ لا يزال عندي بعض الوقت . ثم ان حلقي جف بلا طائل !

قال : ـ سأقدم لك تعويضا .

فلم تعلق . فأضاف يقول :

ـ بعد ان نشرب شيئا في المقهى ، سأدعوك الى تناول العشاء في أحد المراقص ..

ورآها تنفجر فجأة بكل أنوثتها وفتوتها وهي تقول بصرخة مبتهجة :

ـ نرقص ؟ أوه ! انني أعشق الرقص !

وابتسم على مهل . وسمعها تضيف :

ـ أقبل دعوتك بكل سرور ، ولكن علي أن أتلفن للبيت بأنني سأتأخر .

قال من غير انفعال :

ـ قولي لهم انك ستتأخرين كثيرا !

فنظرت اليه نظرة لم يستشف منها اذا كانت قد فهمت وتصنعت الغباء أم انها لم تفهم أصلا .

وحين أصبحا في الطريق ، أشارت الى المتحف خلفهما وهي تضحك :

ـ أنت الذي هربت من المتحف !

فابتسم يقول :

ـ أفضل التحف البشرية . أنت مثلا ...

ولم تجب . يا الهي ! أغبية هي حقا أم انها تتغابى ؟

قالت له بعد لحظات :

ـ ندخل هذا المقهى ؟ انني عطشى .

طلبت زجاجة بيرة ، وطلب هو فنجان قهوة .

وسرعان ما لاحظ الانتعاش يشع في عينيها . ثم نهضت وهي تقول له :

ـ سأتلفن للبيت .

فاومأ لها برأسه . ثم نظر في فنجانه . كان قد تذوق القهوة فلم تعجبه . كان البن فيها قليلا ، فكأنه كان يشرب ماء مسكرا . وأحس بغثيان لم تذهب به الا جرعة من الماء .

حين عادت باتريشيا ، قال لها انه لا يعرف الراقص في المدينة ، وطلب منها ان تأخذه الى مرقص تعرفه . وفي الطريق ، اخذت تحدثه عن حبها للرسم والنحت والموسيقى ، وكان ينظر اليها باسما بصمت .

وفي المرقص ، اقبلت باتريشيا على الطعام بشهية . وكلما تذوقت اللقمة الاولى من كل لون ، تلمظت وهي تقول « اوه ! انه لذيذ ! » .

وحين وصلت الجوقة الموسيقية ، صاحت كطفل تقدم له لعبة :

ـ أوه ! الموسيقى ! الموسيقى !

وأحس بقدميها توقعان تحت الطاولة ضربات تتململ بالرقص .

وبعد دقائق ، بدأت الموسيقى ، فنهض زوجان أو ثلاثة من الشبان والفتيات الى الحلبة .

ولم يكن ينظر الى باتريشيا ، ولكنه كان يحس نظراتها تلهب وجهه فيما هو يأكل . ثم سمعها تسأله :

ـ ألا نقوم الى الرقص ؟

قال لها وهو يضع لقمة في فمه :

ـ آسف .. انني لا أحب الجيرك .. ولا ارقص الا التانغو !

فاذا هي تطلق شهقة ثاقبة . واذ ذاك ، نظر اليها ، فقرأ على وجهها خيبة كبيرة تفاقمت حين قالت له :

ـ ولكن هذا شيء قديم ! لقد بطلت « موضته » !

ولم تنتظر منه تعليقا ، بل استطردت تقول وهي تنهض :

ـ اسمح لي اذن ان ارقص وحدي !

واستدارت اليه قبل ان تبتعد فقالت ضاحكة :

ـ سأعود اليك حين أتعب !

وما كادت باتريشيا تخطو اولى خطوات الرقص في الحلبة ، حتى انبثقت امامه « حنان » .

مثلها أنت ترقصين الآن ، يا باتريشيا . هل أحدثك عنها ، عن ابنتي « حنان » ؟ هل احدثك عن جاذبيتها وعذوبتها ، عن عينيها الضاحكتين ابدا ، عن بسمتها الساحرة ، عن حيويتها المتدفقة تشيعها في كل مكان تحضر اليه ، فتعدي الآخرين بها وتبث فيهم روحا من النشاط والرغبة في التحرك والتنقل ؟ هل أحدثك عن حبها للشعر والبحر ، والطيور والعصافير والموسيقى والاغاني ، والسماء الزرقاء والارض الخضراء ؟ هل احدثك عن تبرمها بالدرس والتحصيل ، وشغفها بالمطالعة الحرة التي لا تفرضها المدرسة ، ولا يوصي بها المعلمون ؟

لو عدت الآن الى المائدة ، يا باتريشيا ، لحدثتك عن كلف حنان بالثياب الجديدة ، وخاصة التنانير القصيرة منها .. ولحدثتك عن احتجاجها الدائم على تزمتي ومنعي اياها من ارتداء الاثواب القصيرة . لو رأتني الآن أنظر الى ساقيك الجميلتين ، يا باتريشيا ، وأتحيّن فرصة قفزة من قفزات الرقص لرؤية المزيد من هاتين الساقين حين يرتفع عنهما الثوب ، لذكّرتني مرة اخرى بالازدواجية : تمنعني يا بابا من ارتداء التنورة القصيرة ، وتحدّق بساقي كل فتاة تلبس الثوب القصير ؟

أجل ، يا باتريشيا ، ارقصي كما ترقص حنان ، افتحي العالم الجديد بشبابك وانوثتك وجمالك ، ولا تلتفتي خلفك الى العالم القديم الذي ذهبت « موضته » .. عبثا حاولت قبلك حنان .. وحين دعتني، آخر مرة رقصت فيها ، الى اللحاق بها ، كنت الهث عياء وتعبا .. كانت ترقص مع صديقاتها وقريباتها آخر صرخات رقصة الجيرك ، في حفلة صغيرة أقامتها في منزلنا بمناسبة عيد ميلادها .. رقصن ورقصن، وصخبن وغنّين ، وحين لمحت على وجهي مسحة الحزن تلك ، فهمت بحدسها ما أعاني ، فركضت اليّ تقول : « تعال ، يا بابا ، سأرافصك قليلا وأعيدك الى شبابك الاول ! » وجذبتني الى الحلبة ، ثم تركتني وهي تصرخ « ارقص الجيرك يا بابا ، ارقص مثلنا يا بابا ! » وحاولت أن ارقص ، يا باتريشيا ، فلم أحسن خطوة الرقص ، وبدأ الحضور يضحكون ، ثم استسلمت لقدميّ تقودانني على هواهما ، فاذا الضحك يتفاقم والصراخ وهتافات الاستحسان .. وسمعت ضحكة ثاقبة تنطلق من حنجرة ابني الاصغر سامي ، فالتفت اليه ، فاذا هو منقلب على ففاه من فرط الضحك وهو يشير اليّ بيده ساخرا .. حتى سلمى كانت تضحك بملء فمها .. وأخذ الجميع يصفقون لي مع ايقاع الموسيقى ، وتدور حولي الفتيات الراقصات الضاحكات .. ثم بدأت اشعر بالتعب ، وبدأ اللهاث يقطع انفاسي ، وأحسست فجأة بهوة عميقة هائلة تفصلني عن حنان ، وعن رفيقات حنان ، وعن جيل حنان . وأخذ الحزن يستولي عليّ ، وما لبثت أن أحسست بسأميّ يصيبهما الوهن ، فخشيت أن أسقط ، وهرعت الى ابني سامي اعانقه وهو ما يزال يضحك ، لاخفي دمعة شعرت انها تريد ان تترقرق في عينيّ .

ثم مضت حنان ورفيقاتها يرقصن رقصهن الطبيعي ، ويعدن الى جوهنّ وحيويتهن وعالمهن الخاص ، مخلفات ذلك الاب المنهك الحزين لعالمه الخاص .

أجل ، يا باتريشيا .. امضي في رقصة حنان ولا تبالي بما حولك .. عيشي حياتك وشبابك ، ولا تظني اني لم أرك تحدثين ذلك الشاب الذي نهض لينضم اليك في الحلبة .. اجل ، راقصيه وحدثيه واضحكي معه ، فهو من تحتاجين اليه ، ومن يفهمك ...

أما أنا ، فسامحيني ، يا صغيرتي باتريشيا ، يا رفيقة حنان الجديدة ، سامحيني اني اردت أن أقتحم عليك عالمك ، وأرجع بك القهقرى ..

وأومأ الى الخادم ، فدفع له الحساب . وقبل ان ينسل في الظلام ، ألقى نظرة اخيرة على الحلبة ، فوجد الراقصين والراقصات متخاصرين وقد بدأت الجوقة بعزف لحن من ألحان التانغو ...

واسترق نظرة بين الراقصين ، فرأى باتريشيا تكاد تعانق فارسها الجديد ، مغمضة العينين .

* * *

أنت اذن تنسى الآن آخر دليل ، وهو بعد احدث عهدا من ان ينسى : أمس فحسب !

وهل قضيت ليلة هادئة حتى تحسّك الآن قادرا على خوض مغامرة جديدة وتكبد خيبة جديدة ؟ أما ارقت طول الليل ، ونبا بك السرير ، فاستعجلت قدوم الفجر لتستقل السيارة الى مطار بيزا في طريق عودتك الى بلدك ، بعد ان تتوقف ساعات معدودات في مطار روما ؟

كان ينظر الى الفتاة وقد بدأت بتسريح شعرها الاشقر من غير مرآة تنظر فيها . وما لبثت ان اخرجت من كيسها كتابا اخذت تقرأ فيه. وثار فضوله ليعرف أي كتاب هو ، أو بأية لغة هو ، ولكن مقعدها كان ابعد من ان يتيح له ذلك .

وانبعث مكبّر الصوت في المطار يدعو المسافرين الى روما ان يتجهوا نحو الطائرة ، فنهض ، وخفق قلبه حين رآها تنهض .

وسارع ينفذ ما كان قد صمم عليه : ان يحث خطاه حتى يحاذيها تماما او يتبعها كظلها ليتمكن من ان يجلس الى جوارها في الطائرة .

أكلّ ذلك من اجل ان تعرف اية لغة هي لغة الكتاب الذي تقرأه، ام انها ذريعة تأمل ان تتخذها لتعقد معها حديثا او ربما اكثر من ذلك ؟

وصعدا الى الطائرة مع الصاعدين ، وهو حريص على ألا يدع احدا

من الركاب المسرعين لحجز مقاعدهم يسبقه الى الجلوس بجوار الفتاة الشقراء .

وتنفس الصعداء حين استقر في مقعده ، الى يسار مقعدها .

سأنعم الآن وأتريث ، واصطنع اللامبالاة ، وانشغل مثلها بربط حزام المقعد ، كما تطلب الاشارة المضيئة في صدر الطائرة .

وهدر المحرك ودرجت الطائرة على مهل ، وان هي الا لحظات حتى أوتفعت في الجو . ونظر عبر النافذة متطلعا الى معالم المدينة تتخطفت تحت عينيه ، فأتيح له أن يتأمل وجه الفتاة جانبيا ، وان يلاحظ على انفها الدقيق بعض النمش . وحكم من قسمات هذا الوجه ان صاحبته كانت تتجاوز دون شك سن باتريشيا . وقدر انها في حوالي الخامسة والعشرين . ونظر الى يدها المستقرة على يد المقعد ، ثم انتقل نظره الى يدها الاخرى : كانت اليدان عاطلتين من أي خاتم ، ما عدا سلسلة فضية تتدلى من معصم يدها اليمنى .

وما ان انطفأت الاشارة المضيئة في صدر الطائرة ، حتى فك حزام مقعده ، وأخرج من جيبه علبة السكاير الاميركية ، فأخذ منها لفافة ، وتردد لحظة ثم بسطها امام الفتاة يقول :

ـ سيكارة ، يا آنسة ؟

التفتت اليه ، وبسمت بسمة خفيفة ، ثم سحبت اللفافة الخارجة من العلبة :

ـ شكرا .

لم تعتذر اذن . حسنا ! ثم انها نطقت كلمة الشكر بالفرنسية . ان سير الامور جيد حتى الآن . انه على الاقل يحمل الوعود بالتطور . ولكنه لا يحتمل التطور البطيء ... فالوقت قصير : ساعة فقط ، حتى مطار روما . لا بد انها ستنزل هناك . والحق انه لا فائدة ترجى من متابعة سفرها الى حيث يقصد . حدود المغامرة تنتهي هناك ، في روما .

وهبطت حماسته : ما جدوى هذا الاهتمام كله ؟

وأخذ ينظر الى دخان لفافته ينعقد فوق المقعد الامامي سحائب راقصة .

ثم رأى الفتاة تسحب كتابها من الكيس الذي كان مستقرا بين قدميها .

وقبل أن تفتحه ، أصابته رعشة حين قرأ عنوانه على الغلاف .

أليست مصادفة عجيبة ان تكون بين يدي هذه الفتاة الاجنبية أجمل رواية فرنسية قرأها في صباه ، بل ربما أجمل رواية قرأها في حياته على الاطلاق : « مولن الكبير » ؟

وكفكف من انفعاله وتأثره : وعاودته حماسته وهو يشعر بأنه يسترد ثقته ورضاه عن نفسه . وتلبث لحظة قبل أن يميل على الفتاة الشقراء فيقول لها بما يشبه الهمس :

ـ اذا لم أخطىء في تقدير الصفحات ، فأظن انك وصلت الى حيث خرج أوغستين مولن، بعد زواجه من ايفون دو غاليه ، ليفي بعهده لاخيها فرانتز ...

كانت عينان زرقاوان مستديرتان بالدهشة تحدقان فيه مع بسمة خفيفة على الشفتين الرقيقتين اللتين انفرجتا لتقولا :

ـ أكان من الضروري ان يترك عروسه التي فعل المستحيلات ليصل اليها ، من أجل أن يفي بوعد طفولي ؟

قال في لهجة هادئة تبحث عن الكلمات :

ـ وهل أجمل ، يا آنسة ، من الوعود الطفولية ؟ انها ، وحدها ، الوعود الصادقة البريئة في عالمنا هذا الملوث !

خفضت الفتاة رأسها قليلا وقالت بصوت خافت :

ـ قد تكون على حق يا سيد.. ولعلنا نحن الكبار انما نعود الى قراءة مثل هذه الروايات بحثا عن براءة طفولية أضعناها ...

وأراد أن يعلق على كلامها ، ولكنها اضافت تقول :

ـ انني لا أمل من قراءة هذه الرواية .. ربما تكون هذه هي المرة الخامسة التي أقرأها فيها .

وسألها ، حتى لا ينقطع الحديث :

ـ ومتى تحسين بالحاجة الى قراءتها ؟

ـ كلما أحسست بالكآبة .

صمت لحظة ، ثم قال :

ـ اذا لم يكن هذا تدخلا في شؤونك الخاصة ... هل أستطيع أن أسألك لماذا تحسين الآن بالكآبة ؟

ضحكت الفتاة فضحك معها شعرها الاشقر وعيناها الزرقاوان :

ـ اما التدخل في الشؤون الخاصة ، فقد تم منذ أن قدمت لي السيكارة !

أحس بالاحمرار يصعد الى جبينه . ولكنه ارتأى ان يداري خجله بمشاركتها ضحكتها . ثم قالت ، كأنما شعرت بما يعانيه من ارتباك :

ـ ولكن لا تحزن . كنت سأطلب منك سيكارة ، لاني نسيت ان اشتري سكاير في المطار ، ولن أستطيع الانتظار حتى تأتينا المضيفة بعربتها الصغيرة .

أخرج علبة السكاير من جيبه وقال :

ـ خذي اذن سيكارة اخرى !

مدت اصبعيها وبينهما السيكارة الاولى وقالت بما يشبه الاحتجاج:

ـ ولكن هذه لم تنته بعد !

أسرع ينطق بالجواب الذي كان قد أعده :

ـ تلك انتهت مناسبتها .. كانت للتدخل .. اما هذه الجديدة ، فلكي تحرقي بها الكآبة التي لم تطلعيني بعد على سببها !

ابتسمت الفتاة الشقراء بكآبة وقالت :

ـ انه سبب خاص جدا .. ومع ذلك ، فسأقوله لك ، لانك ستفهمه ، ما دمت تحب « مولن الكبير » .

وأغلقت الفتاة الكتاب ثم قالت بكل هدوء :

ـ سأتزوج في الاسبوع القادم .

صمتا دقائق ، لا ينظر اليها ولا تنظر اليه .

ثم قال أها انها مسألة الحرية لا مجال لان تكون مطلقة فقالت انها كانت تؤمن بها دائما مطلقة وانها قد نعمت بها على هذا النحو حتى تجاوزت السادسة والعشرين وخطيبها ينتظر منذ اربعة اعوام ان توافق على الزواج وهي لا تستطيع ان تبقى عازبة الى الابد بحجة الحرية فسألها ان كانت تحب خطيبها فقالت انها لا تكرهه وقد قررت انتتنازل اخيرا من اجله عن المطلق من حريتها فقال هذه هي المسؤولية لا حرية بلا مسؤولية فقالت انها نظرية سارتر فقال انها نظرية آدم وحواء طبقاها منذ أكلا التفاحة وهبطا الى الارض فقالت ان هذا صحيح فالارض والمسؤولية توأمان فسألها ان كانت رحلتها هذه وداعا للحرية المطلقة فقالت انها مندوبة شركة سويسرية أوفدتها لانجاز بعض الاتفاقات مع المصانع الايطالية فسألها متى تعودين الى بلدك فقالت بعد ثلاثة ايام بالقطار من روما وقالت انه ينتظرها بفارغ الصبر .

فتحت الفتاة الشقراء محفظتها الصغيرة ، وأخرجت صورة بعرض كفها قائلة :

ـ هذا هو .

قال بعد أن تامله لحظة :

ـ شاب جميل . كم هو عمره ؟

ـ انه في مثل سني .

ولم يقل لها انها محظوظة . كان في جمالها بعض التعويض .

اعادت الصورة الى المحفظة ، وقالت وهي تتنهد :

ـ ساحاول جهدي ان اسعده . انه يستحق ذلك .

انت تلتزم الآن الصمت . تصمت حين ينبغي أن تتكلم . ماذا تنتظر بعد ؟

وضع يده على ظاهر كفها التي تعانق يد المقعد ، وضغط عليها بانفعال وحرارة :

ـ اتمنى لكما انتما الاثنين حياة سعيدة .

فحنت راسها ببسمة شكر .

أخرج من جيبه محفظته وفتحها على صورهم الاربع ، فانبعث عالمهم كله .

قالت ان زوجته جميلة جدا فقال ونبيلة جدا فقالت ولكن لماذا هي مقطبة فقال انه هو الذي اختار لها هذه الصورة فقالت فهمت فقال انه لا يستحقها فقالت لا تعذب نفسك فيما لا جدوى منه واضافت انها الحياة فسألها كيف تجدينهم هم فقالت اما هذه اليست هي الكبرى فالحيوية والفرحة والطموح وأما هذه اليست هي الوسطى فالرقة والوداعة الى ثقة بالنفس كبيرة وأما هذا انه اصغرهم دون ريب فالعفرتة والذكاء وحب التفوق فقال لها انها منجمة او قارئة كف او ساحرة فقالت له بل هذه سمات تنطق بها ملامح وجهه ثم اضافت انه لا بد متعلق جدا بأسرته الصغيرة وانها هي لا بد سعيدة به .

أحس بيدها تضغط على يده بانفعال وحرارة فيما هما ينهضان وقد توقفت الطائرة تماما في مطار روما .

ولم ينطقا بحرف ، حتى دخلا قاعة المطار .

قال لها :

ـ هل أنت مستعجلة ؟ ان امامي عدة ساعات أقضيها في مطار روما بانتظار قيام الطائرة الى بلدي .

قالت له باسمة :

ـ هل تدعوني الى فنجان قهوة في مقهى المطار ؟

من غير ان يجيب ، أمسك بذراعها ودخلا قاعة الانتظار .

وكانت هي التي أومأت الى مقهى انيق في وسط القاعة ، فدلفا اليه .

قال ضاحكا وهما يجلسان متجاورين على اريكة ملتصقة بالجدار :

ـ نريد ان نتعارف على الاقل ! هل لاحظت ان احدنا يعرف عن الآخر كل شيء تقريبا ، ما عدا اسمه ؟

أجابت وهي تمسك بيده فوق الطاولة :

ـ وما الفائدة ؟ ما حاجتنا الى ذلك ؟

وصمتت لحظة قبل ان تضيف :

ـ سنفترق بعد قليل ، فتذهب الى عائلتك وأعود الى وطني . لا أعتقد اننا سنلتقي بعد أبدا .

حدق في عينيها وهو يحس الرعشة في جسمه :

ـ أصحيح انها ستنتهي ... هذه القصة .. بعد لحظات ؟ أحس انني أعرفك منذ وقت طويل ، وسأظل أذكرك الى وقت طويل .

كان الخادم قد قدم لهما القهوة وعاد الى المشرب . ولم يكن في المقهى الانيق الا امرأة تقرأ في جريدة وطفلها يأكل حلوى .

ظلا صامتين وهو ينظر الى عينيها الزرقاوين الشفافتين ، وخيّل اليه ان سحابة من حزن تغشاهما .

أحس يده تقلب كفها وفمه ينحني عليها فيقبل باطنها .

وحين رفع رأسه ، لامس شعرها الاشقر وجهه .

وشعر بانفاسها على خديه .

فيما كانت شفتاه ملتصقتين بشفتي السويسرية الشقراء ، ارتسمت في عينيه صورتها .

كلما كان يقبلها ، بعد عودته من كل رحلة ، كانت تطلب منه شيئا واحدا : أن يبقي عينيه مفتوحتين . لتقرأ فيهما ، كما كانت تقول . وكان يضحك ويفتح عينيه ويطيل معها قبلته ويقول : اقرأي . اقرأي ما شئت . اقرأي في أعماقهما . اقرأي فيما وراء الاعماق .

حين انفصلت شفتاهما ، أحس بذراعها حول كتفيه . جذبها اليه فأحس نهديها على صدره .

قالت له وهي تمسح شفتيه بمنديلها :

ـ قلت أن طائرتك لن تقوم قبل ساعات . هل تقبل دعوتي للغداء في مطعم فندق صغير يقدم ألذ طعام ايطالي ولا يبعد اكثر من نصف ساعة ؟

فجأة شعر بالارتباك والضيق . وقال كأنما ليتخلص منهما :

ـ أنت صاحبة الدعوة ؟ يخجلني ألا أكون أنا صاحب المبادرة .

قالت ضاحكة :

ـ تنسى اني « امرأة أعمال » !

واستطردت :

ـ اذا كانت شرقيتك تأبى عليك ذلك ، فاني أقبل دعوتك !

وتردد قبل ان يقول ، متلعثما :

ـ أليس هناك خوف من أن تفوتني الطائرة ؟

فسارعت تأخذ انفه بين اصبعيها وتضغط عليه قائلة :

ـ افرض انها فاتتك !

تضاحك خجلا وتمتم :

ـ صحيح ! ما أغباني !

خرجا من مقهى المطار ، فأتم معاملة وضع أمتعته في قسم الامانات ، واستخرجت هي حقيبتها ، فاستقلا سيارة .

قالت له في الطريق :

ـ أراك ساهما ...

قال :

ـ المعذرة ...

ثم قبّلها في خدها. وراح ينظر الى الاشجار تنخطف عبر النافذة.

وقالت بصوت شعر فورا بأنه أكثر حدة مما يحتمل الامر :

ـ الحرية المطلقة ...

ولم تتم عبارتها الا بعد ان خفضت صوتها :

ـ صحيح انها مستحيلة ، ومع ذلك ...

عجب لنفسه : أهي التي قالت « ومع ذلك » ، أم تراه هو ؟

ـ ومع ذلك ، عبثا يحاول الانسان اطفاء شوقه اليها !
زادت السيارة من سرعتها ، فزادت الاشجار انخطافا .

أراد ان يتكلم ، ان يتكلم كثيرا ، لمدة طويلة . ان يقول اشياء هامة ويقدم افكارا جديدة تخطر له للمرة الاولى . ولكنه كان واثقا من ان سرعة انخطاف الاشجار ، عبر نافذة السيارة ، كانت ستحول دون ان ينطق بكلمة . فلم يقل شيئا .

وحين أبطأت السيارة ، وعادت الاشجار تمر هادئة ، زايلته كل رغبة في الكلام .

وبعد ان تناولا الطعام في مطعم الفندق ، قال بما يشبه الاعتذار ، وهما ينهضان عن الطاولة :

ـ سنتحدث طويلا في الغرفة .
ورآها تبتسم له بسمة خفيفة ، وهي تأخذ بذراعه .

وفي الغرفة ، لم يقل الا انها غرفة جميلة . فأومأت برأسها ، وطلبت منه سيكارة ، فأشعل لها واحدة ، وأخرى له ، ووقف يدخن وهو ينظر ، عبر النافذة ، الى غابة السرو الممتدة تحت عينيه . قال في نفسه انه سيدخن سيكارة او سيكارتين ، ولكنه سمعها تقول من وراء رأسه :

ـ انني هابطة لاطلب حقيبتي .

فلم يقل لها ان بالامكان طلبها بالتلفون . وحين خرجت ، انتظر حتى سمع صوت باب المصعد ، فخرج من الغرفة على مهل ، وهبط السلم ببطء . وفي أسفل السلم انتظر دقائق : ستصعد ثانية الى الغرفة بالمصعد فلا تجدني . ستقلق وستنتظر . ثم تسأل عني بعد أن تمل الانتظار .

وخرج أخيرا ، فاتجه الى مكتب الاستعلامات ، طالبا ان يسدد الحساب .

قال له موظف الاستعلامات :
ـ منذ دقائق ، سددته الآنسة التي كانت بصحبتك .

وفيما كان يقلب الامر في رأسه مذهولا ، اضاف الموظف وهو يبسط له ظرفا :

ـ وهذه رسالة تركتها لك .

تناول الرسالة وهو يتكلف الغضب امام الموظف ، فدسها في جيبه وخرج مسرعا ، فاستقل سيارة طلب منها ان تحمله الى مطار روما .

وفي السيارة ، أخرج الرسالة من جيبه ، فمزقها من غير ان يقراها ، ووضع قصاصاتها في منفضة السكاير .

* * *

حين قبّل زوجته ، تلك الليلة ، ظل مغمض العينين .
وفي تلك الليلة ، لم تطلب منه ان يفتحهما .

بيروت — سهيل ادريس

دواوين شعرية
من منشورات دار الآداب

وجدتها — فدوى طوقان
الليل والفرسان — » »
امام الباب المغلق — » »
لم يبق الا الاعتراف — احمد عبدالمعطي حجازي
يبادر الجوع — خليل حاوي
العيون المحترقة — فاروق شوشة
النار والطين — راضي صندوق
بدر شاكر السياب (مختارات) من شعره
اختارها وقدم لها ادونيس
علي محمود طه (مختارات من شعره)
اختارها وقدم لها صلاح عبدالصبور

ابراهيم ناجي (مختارات من شعره)
اختارها وقدم لها احمد عبدالمعطي حجازي
رحلة الحروف الصفر — بلند حيدري
قراءة ثامنة — حميد سعيد
وسام على صدر المليشيا — خالد ابو خالد
من فلسطين ريشتي — ابو سلمى
الموت الكبير — سميح القاسم
اعناق الجياد النافرة — فواز عيد
فصول لم تتم — حبيب صادق
ملامح من الوجه الانيادوقليسي — محمد عفيفي مطر

دار الآداب ص . ب ٤١٢٣ بيروت